

من سيرة العظماء في مشيخة الأزهر محمد يوسف عدس

هذه شهادة لله في عنقى لفضيلة الشيخ الفاضل "جاد الحق على جاد الحق" شيخ الأزهر الأسبق .. تأتي على خلفية تهاوى شيوخ الانقلاب العسكري واحدا بعد الآخر في مستنقع الإفك والنفاق . أذكر أنني تعرفت عليه خلال ابتعائى من قبل منظمة اليونسكو [على ما أذكر] في أواخر الثمانينات من القرن الماضى- لتقديم استشاراتى واقتراحاتى بخصوص تطوير وتنمية مكتبة الأزهر فى مبناها الجديد[كان جديداً وقتها]- الكائن بشارع صلاح سالم.. وفقاً لطلب من شيخ الأزهر إلى منظمة اليونسكو التي انتدبتنى لهذه المهمة .. وكان الشيخ شديد الاهتمام بهذه المكتبة ؛ فقد كان يحلم بأن يزودها بأحدث التقدمات التقنية لخدمة الباحثين فى الإسلام فكرًا وحضارةً .. وأن يتوفر لرؤاها من المكفوفين أحدث الوسائل للاتصال بالمعرفة والقراءة .. وأن تقوم مكتبة الأزهر بدور مواز لمكتبة الإسكندرية ؛ كمركز متخصص فى الثقافة الإسلامية.. وهذا كلام سمعته من الشيخ الجليل فى حوارى معه خلال أول لقاء به.

رحب بي الشيخ ترحيباً شديداً فى مكتبه ؛ حيث تداولنا الحديث منفردين لمدة ساعة ، أمر فيها الشيخ تأجيل كل المكالمات الواردة إليه حتى ينتهى اللقاء .. ومنذ تلك اللحظة بدأت العلاقات تتوثق بيننا ؛ ففى خلال ثلاثة أشهر كنت ألتقى به وأجتمع معه على الأقل مرتين كل أسبوع ؛ إذ طلب منى أن أنضم إلى لجنة المكتبة كمستشار للنظر فى مشكلاتها ومعالجتها فاشتترط أن يكون هو رئيس اللجنة؛ حتى يكون التواصل مباشرا بدون واسطة مع صاحب القرار ، فقبل اقتراحى..

لهذه المكتبة قصة مثيرة تكشف عن علاقة السلطة فى عهد الرئيس محمد حسنى مبارك مع الأزهر وشيخه الجليل.. فدولة مبارك لم تدفع جنيهاً واحداً فى بناء هذه المكتبة ؛ ذلك لأن المال الذى اشترى به الأزهر الأرض وتكاليف المباني كانت منحة مشروطة من وزارة الأوقاف بدولة بروناي ؛ وشرطها أن تُنفق فى بناء مكتبة للأزهر.. يتم تزويدها بأحدث الوسائل التكنولوجية.. وبناء دار للطالبات المسلمات المغتربات اللانى يدرسن فى جامعة الأزهر..

كان المبلغ كبيراً بلغ عدة ملايين من الدولارات ، طمع فيها مبارك فأمر بوضعها تحت إشراف رئيس وزرائه عاطف صدقى .. وهنا بدأت معركة خفية بين حكومة طامعة فى المال.. تسابير مشروع الأزهر على مضض وتضع أمامه العراقيل، وبين شيخ الأزهر الذى أصر على أن يمضى فى مشروعه كاملاً إلى النهاية..

هناك خلفية لا بد من تجليتها فى هذا المجال لم يتطرق ولن يتطرق لها الإعلام المصري أبداً: فقد كان من المفترض أن يوضع هذا المال تحت يد شيخ الأزهر نفسه من خلال وزير مستقل تابع له باسم "وزير الأزهر" .

وهو وزير وجوده مقرر في النظام الحكومي المصري .. وقد خُصص له مبنى في جاردن سيتي بالقاهرة.. ولأن شيخ الأزهر لديه رسمياً صلاحيات رئيس الوزراء؛ فله مطلق الحرية في التصرف بميزانيته الخاصة أو أي مبالغ مالية أخرى ترد إليه من المانحين .. ولكن لأن تطوير الأزهر وتنميته ليست شأنًا واردًا في اهتمامات نظام مبارك فقد ألغى وظيفة وزير الأزهر وأسندها إلى عاطف صدقي.. وأصبح رئيس الوزراء هو صاحب القرار في كل ما يتعلق بالانفاق .. وعلى شيخ الأزهر أن يطلب أو يستجدي من رئيس الوزراء لا أن يأمره..

كان عاطف صدقي قد حوّل الشطر الأكبر من أموال المنحة من الدولارات إلى الجنيهات المصرية .. فنصحت شيخ الأزهر بأن يصر على أن يبقى الشطر الآخر مجمدًا بالدولار لأن المكتبة تحتاج إلى أجهزة حديثة اقترحتها وبعثت بمواصفاتها إلى الخبراء المسئولين بمقر اليونسكو في باريس لمساعدة الأزهر في الحصول عليها.. ولكن يلزم دفع ثمنها بالعملة الأجنبية.

جاء مشروع مبنى دار الإفتاء المجاور بعد مشروع مبنى مكتبة الأزهر، ولكن لأن الشيخ طنطاوي مفتي الجمهورية أحل فوائد البنوك الربوية حسب طلبات مبارك وألف في هذا كتابا كبيرا تراجع فيه عن كل فتاويه السابقة بالمخالفة الصريحة لمبادئ الشريعة الإسلامية ، تسارعت الخطى في إتمام مبنى دار الإفتاء على أحسن وجه.. ووضعت العراقيل أمام مبنى مكتبة الأزهر، فقد كان عاطف صدقي يماطل في دفع مستحقات الشركة المنفذة للمبنى "شركة عثمان أحمد عثمان" ويماطل وزيره للأشغال العمومية في منح تصاريح توصيل المياه والكهرباء والمجارى..

عرفت هذه القصص بالتفصيل خلال جلسات لجنة المكتبة وخلال اتصالاتي الفردية مع أطراف أخرى داخل إدارة الأزهر وخارجها.. واقترحت على الأزهر دعوة وكيل الوزارة المسئول عن التصاريح لمناقشته في لجنة المكتبة .. وبعد أن اطلعت على جميع المكاتبات بين الأزهر والوزارة ، طلبت من شيخ الأزهر أن يدعوني لمناقشة وكيل الوزارة أثناء انعقاد اللجنة.. وقد استجاب لطلبي .. وقد اتضح لي أن الوزارة قد تعاملت مع طلبات الأزهر باستخفاف شديد وأن وكيل الوزارة المسئول لا يعرف تفاصيل الموضوع بدقة وقد أصابه الارتباك من دقة أسئلتى الموجهة إليه .. فأظهر أريحية كبيرة وبدا أنه مقتنع بوجهة نظري ووعده بالإسراع في حل المشكلات وإصدار التراخيص اللازمة في أسرع وقت..

توقفت صلتى بالموضوع عند هذه النقطة وسافرت إلى لندن مقر إقامتي في ذلك الوقت .. ثم بلغني خبر وفاة الشيخ جاد الحق رحمه الله.. وتعيين الشيخ طنطاوي في مشيخة الأزهر فلم يطلبني لمواصلة الاستشارة ولو طلبني ما استجبت له لئاسي من توجهاته وقدراته.. وإبراء للذمة أودعت نسخة من التقرير الخاص بتطوير وتنمية مكتبة الأزهر لدى صديقي الأستاذ فهمي هويدي.. على أمل أنه قد يستطيع أن يتواصل مع الشيخ طنطاوي إذا لزم الأمر.. وأذكر أن فهمي هويدي علق على

هذا الموقف ضحكا.. قال: يعنى أنت تتخلى عن المسئولية وتعلقها فى رقبتى..؟! قلت له: لا حيلة لى فأنا مقيم خارج مصر وهذا الرجل لا أستسيغه ولا أمل عندى فيه.. ولا أستطيع التواصل مع هذا النوع المتقلب المطاطي من الناس..

أعترف أن القصة التالية لم يذكرها لى الشيخ جاد الحق ولما عرفت من مصادرها الموثوقة لم أراجع فيها الشيخ نظراً لحساسيتها الخاصة .. وتجنباً للحرج . الراوي أستاذ جامعي من المغضوب عليهم الآن والمطاردين خارج مصر، أصبحت الآن في حلٍّ من ذكر اسمه ؛ إنه صديقى الدكتور محمد الجوادى ..قال:

" كان مبارك لا يزال تلميذا في الثانوية العامة وكان أبوه كاتباً صغيراً في المحكمة الشرعية التي كان يرأسها القاضى الشيخ جاد الحق على جاد الحق.. جاء حسنى مبارك إلى رئيسه مهموما فشكى له أنه يخشى على ابنه "محمد" من الرسوب في اللغة العربية .. وأنه يحتاج إلى دروس خصوصية لا يقدر على تكاليفها.. فقال له الشيخ إبعثه إليّ وأنا أساعده إن شاء الله.

وبعد ما يقرب من أسبوعين سأل الأب عن حال ابنه.. فقال له الشيخ: لا تبتنس فإن شاء الله سينجح في اللغة العربية .. ولكن المشكلة عند ابنك أكبر من مشكلة اللغة .. إنه لا يصلح مطلقاً للكليات العلمية بقدراته الذهنية والتحصيلية لن تساعده على الالتحاق والدراسة في هذه الكليات .. إنه يتمتع بلياقة بدنية واضحة فابحث له عن كلية عملية يستفيد فيها بمواهبه العضلية مثل التربية الرياضية او الشرطة أو شيء من هذا القبيل.."

ولما أصبح مبارك رئيس جمهورية مصر بقدرة قادر جاء بالشيخ جاد الحق شيخاً للأزهر نظراً للعلاقة السابقة .. وظناً منه أنه سينبهر بمكانته ويكون طوع يمينه. ولكن الشيخ كان صلّباً قوي الإيمان بدينه ومبادئه .. وهنا بدأ الصدام الخفي المكبوح ..!

أراد مبارك أن يستعرض إمكاناته الجديدة أمام الشيخ في مؤتمر لرجال الدين ؛ فأقسم بالشمس والقمر والنجوم في معرض خطابه للعلماء.. فمال عليه الشيخ وكان يجلس إلى جواره على المنصة وقال له بصوت منخفض: "لا يصح لك ولا لأي إنسان أن يقسم إلا بالله .. والله وحده هو الذى يقسم بما شاء من مخلوقاته.."

قالها بصوت منخفض ولم يتنبه أن الميكروفونات مفتوحة .. فسمعها الجميع وانخرطوا في الضحك..

وحاول رجال مبارك أن يشتروا ذمة الشيخ فعرضوا عليه أن يتملك قصرًا مجانيًا كامل الفرش والتجهيز يليق بمقامه وسكنه بدلا من شقته المتواضعة في روضة المنيل.. والتي كان يصعد إليها على قدميه أربعة طوابق لعدم وجود "أسانسير" بالعمارة.. ولكنه رفض العرض وفضل البقاء في شقته رغم متاعب القلب وتواضع

الأثاث؛ فلم يكن الشيخ يملك مكتبا ليجلس عليه ويقرأ أو يكتب سوى منضدة صغيرة في ركن من غرفته.
وبالمقارنة : قيل -والله أعلم- أن خَلْفَهُ قَبْلَ بثلاثة قصور له ولابنيه الاثنین !!

قصص محاولة تطويع الشيخ الصامد وصدوده وإعراضه ومتاعبه مع مبارك وزبانيته تحتاج إلى كتاب لتفصيلها .. نذكر هنا واحدة منها على سبيل المثال ؛ فقد أراد مبارك أن يستصدر فتوي رسمية من مشيخة الأزهر بإباحة فوائد البنوك ، وكان الأزهر يُحرمها تماما ويُفتي بأنها ربا صريح لا يجيزه الشرع .. وكان الاقتصاديون قد أوعزوا لمبارك أن الناس لا تضع أموالها في البنوك بسبب فتوي الشيخ جاد الحق ، فقال مبارك في أحد اجتماعاته مع بعض المشايخ ووزير الأوقاف موجهاً حديثه للشيخ جاد: " باقولك إيه يا مولانا .. البنوك قربت تغلس لأن الناس لا تضع أموالها بالبنوك .. عايزين فتوي من فضيلتك تنقذ الاقتصاد المنهار وتحلل وضع الفلوس في البنوك لأن الناس بتضع كل ثقتها في الأزهر ودي ضرورات برضه.."

فما كان من الشيخ جاد الحق إلا أن انتفض واقفا وقال لمبارك بغضب شديد: ومن قال لك أني أحرم أو أحلل؟! إن الذي يُحلل و يُحرم هو الله .. ولن تتغير فتواي أبداً أبداً بتحريم فوائد البنوك.. فاضطرب مبارك واحمر وجهه .. ثم وقف يقول وهو يتلعثم: "يا مولانا ده أنا كنت باهزّر!" .. ولكن استمرّ الشيخ جاد في غضبه علي مبارك ؛ حيث عنفه قائلاً بمنتهى الحسم : هذا موضوع لا مجال فيه للهزل . وهنا انصرف مبارك وهو يمسح عرقه .. أما الحاضرون من منافقِي مبارك فقد لزموا الصمت ، ولم يجرؤ أحد منهم أن يتعرض بالكلام لشيخ الأزهر أو محاولة تهدئته حتي لا ينالهم ما نال مبارك .. فساد الصمت قاعة الاجتماع حتي انصرف شيخ الأزهر .. وظلت الحكاية تُروى سرّاً في الأزهر من باب الفخر -المستحق- بالشيخ جاد الحق ..

وأخيرا .. هذه واقعة رأيت أن أشير إليها في عجالة ؛ وهي مجرد لمحة كاشفة من معاناة الرجل مع ذيول مبارك ومنافقيه في الإعلام المصري: فقد ظهرت حينذاك في في الإعلام والصحف موجة من الهجوم على الأحكام الشرعية .. وعلى رموز الفكر الإسلامي ؛ واستغربت ألا أجد من شيخ الأزهر ردّاً على هذا الهجوم ، فانتهزت فرصة وجودنا وحدنا في مكتبه مرة وسألته: لماذا لا تكتب يامولانا عن الهجمات التي يتعرض لها الدين والأزهر في الإعلام .. قال باختصار شديد كتبت كثيرا ولم يُنشر.

رحم الله الشيخ جاد الحق ، وجمعنا به في الجنة إن شاء الله بفضلته وسابغ كرمه..

myades34@gmail.com

(نشر المقال بجريدة الشعب في ٢٣ يونية ٢٠١٧م)